الفصل التاسع

بنو أمية (فرع الحكم) ٨٦ — ٩٦

٧٠٥ — ٧١٥ م

الوليد الأول — الفتوحات فى الشرق — التوغل فى أفريقيا — موسى ابن نصير — حاكم المغرب — شؤون الأندلس — استبداد رودريك طارق بن زياد يعبر جبل طارق — موقعة سيدونيا — موت رودريك فتح الأندلس — الزحف على فرنسا — استقدام موسى وطارق الإدارة العربيـة فى الأندلس — الولايات — نتائج التنافس القبلى وفاة الوليد الأول — أخلاقه

خلافة الوليد الأول

ولما بويع « الوليد » بالخلافة بادر « الحجاج » أمير المشرق إلى عزل « يزيد ابن المهلب عامل خراسان ، وعين مكانه زعيما مضريا يدعى « قتيبة » وكان قائداً باسلا عليما بفنون القتال ، صارما شديد الوطأة ، لا يثنيه شىء عن عزمه ، شأن الكثير من القواد الذين تحدثنا عنهم الرواية الأوربية . ويقال إن « الصغد » سكان أواسط آسيا حتى شمالى نهر أركسوس كانوا قد وافقوا فى أوائل عهده على أن يعيشوا بسلام مع المستوطنين المسلمين ، وعلى أن يقبلوا الولاة فى حواضرهم ليشرفوا بأنفسهم على مصالح العرب ، غير أنهم وجدوا فى عزل « يزيد بن المهلب » فرصة سانحة لنيل استقلالهم ، فوثبوا بالعرب النازحين ومزقوهم شر ممزق . ولكن الخليفة أنفذ إليهم فى الحال جيشا كثيفا ظل يحارب طوال عشر سنوات ارتكبت فى خلالها أروع ضروب السفك والتدمير ، حتى أتيح « لقتيبة » أن يخضع بلادهم نهائيا حتى حدود كاشغر .

الفتوحات فى الهند

وفى تلك الأثناء رأى « محمد بن القاسم » عامل مكران أن القبائل القاطنة بين السند و بلوخستان ما انفكت تناوئه ، فزحف بجيشه على الهند و بعد أن

اشتبك مع أهلها فى عدة معارك أخضع السند ومولتان وجزءاً من البنجاب حتى انتهى إلى حدود إليس .

أما « مسلمة بن عبد الملك » الذى كان يعد أشجع أفراد الأسرة المالكة[1] فكان يقود جيشاً عربياً فى آسيا الصغرى كما كان « العباس » ابن الخليفة نفسه يقود جيشاً آخر ، فأدت حركاتهما المشتركة إلى إخضاع عدة مواقع هامة فى آسيا الصغرى .

عمر بن عبد العزيز حاكم الحجاز

وفى عام ٨٧ هـ ولى « الوليد » ابن عمه « عمر بن عبد العزيز » الحجاز ، وكان أول ما قام به تأسيس مجلس شورى من قضاة البلدة لكى يساعدوه على تصريف شؤون الولاية ، وأضحى لا يبت فى أمر من أمورها إلا باستشارة هذا المجلس ، محاولا بذلك إصلاح الأخطاء التى ارتكبها أسلافه فى المدن المقدسة فى أيام « يزيد » و « عبد الملك » ، كذلك جمّل مكة والمدينة أحسن تجميل ، وشيد فيهما المبانى العامة ، وحفر المجارى والآبار ، وأصلح الطرق التى تربط العاصمة بالمدن الأخرى . وعلى الجملة كان رجلا حازماً ، معتدلا ، محباً لترقية شعبه ورفاهيته ، فتمتعت البلاد فى ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ الأمر الذى أغرى بعض العراقيين بالالتجاء إلى الحجاز فراراً من بطش طاغية الولايات الشرقية الذى أخذ الآن يوغر صدر الخليفة على عمر بن عبد العزيز حتى عزله سنة ١٢ هـ ، فوقع هذا الخبر على أهل الحجاز وقوع الصاعقة . وكان أول ما قام به الحاكم[2] الجديد أن طرد جميع اللاجئين من العراقيين ؛ ومما يجب ذكره أيضاً أن الحجاج كان قد سجن « يزيد بن المهلب » وإخوانه وراح يسومهم صنوف العذاب ، ولكنهم برغم ذلك تمكنوا من الفرار إلى سليمان أخى الوليد .

---

(١) لم يظفر « مسلمة » بالخلافة نظرا إلى أن أمه كانت أمة ، ولم يكن الأمويون فى أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر . (المعرب)

(٢) استشار « الوليد » الحجاج فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المرى فولاه إياها . (المعرب)

الفتوحات فى افريقيا عام ٨٩ هـ

هـذا هو مجمل الحوادث التى وقعت فى الشرق : أما فى الغرب فقد كان « حسان بن النعمان » لا يزال يحكم أفريقيا بالحكمة والعدل بعد مقتل الكاهنة ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله سنة ٨٩ هـ ، وعين مكانه « موسى بن نصير » الذى كان أبوه رئيس الشرطة فى زمن « معاوية » ورفض أن يشترك فى موقعة صفين ، غير أن أبا سفيان برغم ذلك صفح عنه وقدر له حرية رأيه .

كان عزل « حسان » عن ولاية أفريقيا إيذانا بثورة البربر الذين أخطأوا فهم ما كان عليه « موسى » من بعد الهمة وقوة الشكيمة ، فاشتبك معهم هو وأولاده فى سلسلة معارك رائعة ، مزق فيها شملهم ، وأقصى المحرضين اليونانيين عن البلاد ووطد فيها الأمن ، كما استطاع بما عرف عنه من حب العدل والإنصاف أن يجذب إليه جميع الأعيان ، وعين الفقهاء لتعليم الناس أحكام الدين . ولما رأى بثاقب فكره أن الجيش البيزنطى ما فتئ يهاجم العرب من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، سير جيشاً كبيراً عليهم لتأديبهم ، ففزا جزائر منورقة وميورقة و إيفيقية ، وضمها إلى الإمبراطورية العربية . وعندئذ أخذت تلك الجزر تزدهر كما ازدهرت المدن الأخرى التى سبق أن احتلها العرب ، فشيدت فيها المبانى الجميلة ، وأدخلت مختلف الحرف اليدوية ، وتقدمت مرافق البلاد تقدماً محسوساً ، وأصبح « موسى بن نصير » كالحجاج بن يوسف أمير المشرق ، حر التصرف فى تسيير دفة الأمور فى ولايته . وكانت إمارة أفريقيا تمتد من حدود مصر الغربية حتى شواطئ المحيط الأطلسى ما عدا كيوتا . (وتشتمل على الجزر الغربية فى البحر الأبيض المتوسط) التى كان يحكمها الكونت « يوليان » من قبل ملك القوطيين بالنيابة عن إمبراطور الرومان .

وفيما كانت أفريقية تتمتع بنعمة الطمأنينة والعدل ، وتسير بخطا واسعة فى

---

(١) كان مسيحيا واعتنق الإسلام ، وهو من بلدة عين التمر على مقربة من الأنبار غربى الكوفة بالقرب من قرية شفاثة . (المعرب)

طريق التقدم والفلاح تحت رعاية الحكم العربى ، كانت أسبانيا ترزح تحت نير القوط الشديد الوطأة . ويمكننا أن نقول إن أهل تلك البلاد لم يشاهدوا حالة أسوأ أو أتعس من الحالة التى كانوا يئنون منها تحت سلطان هؤلاء الملوك . فكانت الطبقات الغنية والأعيان معفاة على الجملة من دفع الضرائب ، كما كان الشأن فى عهد الرومان ؛ أما الطبقة الوسطى التى ألقى على عاتقها نير هذا العبء الثقيل ، فقد أخذت تهبط سراعاً إلى دركات الفاقة والخراب ، حتى ضعف فيها النشاط الصناعى من جراء فداحة الضرائب ، وتعطلت الحركة التجارية والصناعية ، ومنيت البلاد بشلل محزن ، لا يقل هولاً عن الشلل الذى أصابها عقب خروج المسلمين منها . والمعروف أنها كانت وقتئذ مقسمة إلى إقطاعيات عديدة يعيش فى كل منها ملاكون يتقلبون فى أعطاف الترف والنعيم ويسكنون فى القصور الشامخة ، حيث يقصون أوقاتهم فى أخزى ضروب الفسق والفجور ؛ وكانت الزراعة يزاولها إما الأقنان الذين كانوا يباعون ويشترون مع الأرض التى يعملون فيها ؛ وإما فئات العبيد البائسين الذين يكدحون ويكدون تحت أسواط أسيادهم الغلاظ الأكباد . وكان الأقنان والعبيد على حد سواء قد فقدوا كل رجاء فى استنشاق نسيم الحرية ويئسوا من سطوع نجمها عليهم ؛ ولم يكن أحد منهم ليستطيع الزواج إلا بموافقة سيده ، كذلك كان يتحتم على الزوجين بمقتضى نصوص القانون أن يوزعا أطفالهما بالتساوى بين صاحبى الأرض . وعلى الجملة كان الأقنان والعبيد يعيشون فى عالم ملىء بالخرافات انحطوا فيه إلى أحط الدركات الخلقية والمادية معاً .

الأندلس

أما اليهود الذى كان يعيش عدد كبير منهم فى أسبانيا فكانوا يعانون أقصى الاضطهاد من جور الملوك والكهنة والأعيان ، وقد بلغ بهم اليأس ذات مرة درجة حاولوا معها الخروج على أسيادهم ، وشقوا فعلا عصا الطاعة ، غير أنهم أخفقوا فى محاولتهم نظرا لسوء تدبيرهم ، فنكل بهم الأسبان أشد تنكيل ، وصادروا

أملاكهم وعاملوا من بقى منهم حياً معاملة الأرقاء ، ووزعوهم شيباً وشباناً ذكوراً وإناثا على السكان المسيحيين ، ولم يسمحوا إلا للشيوخ منهم بالتمسك بدينهم القديم رأفة بهم ورحمة منهم ! ! أما الشبان والأطفال فقد لقنوا العقيدة المسيحية وحظر على اليهود الذكور التزوج من اليهوديات . وهكذا كان العقاب الذى أنزله رجال الدين — أصحاب السلطة — باليهود الذين ثاروا لكرامتهم . وغدا هؤلاء العبيد التعساء والأقنان البائسون واليهود المضطهدون يترقبون الخلاص ولات حين مناص ؛ وفى ساعة النزع الممض ، أشرق عليهم قبس الحرية من جهة لم تكن فى الحسبان ، إذ غدت الدولة العربية الجاثمة على الضفة الأخرى من المضيق ملجأ يهرع إليه الناس من اضطهاد الإكليروس واستبداد حكام القوط ، ولكم لاقى الأسبان صدورا رحبة فى أفريقيا الإسلامية ، فعاشوا فى كنفها مطمئنين بعيدين عن طغيان الملوك وجور رجال الدين .

وفى تلك الأثناء بينما كان « موسى بن نصير » يحكم أفريقيا بالعدل ، نادى روذريق (Roderick) بنفسه ملكا على أسبانيا ، بعد أن قتل ملكها الأصلى المسمى وتيزا (غيطشه) ، فسعى جوليان حاكم سبتة إلى الاتفاق مع مهاجرى الأسبان واستنجد فى الوقت نفسه بالوليد ، فانتهز موسى هذه الفرصة وأرسل جماعة يقودهم « طريف » بن مالك لاستطلاع الأحوال فى الساحل الجنوبى ، ثم نزل طارق بن زياد أحد القواد الأكفاء ، ومعه سبعة آلاف [1] بالموقع

---

(١) قام طارق فى أصحابه ، فحمد الله ثم حض الناس على الجهاد ورغبهم فى الشهادة ، وبسط لهم فى آمالهم ثم قال : « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، فليس ثمّ والله إلا الصدق والصبر فإنهما لا يغلبان ، وهما جندان منصوران ، ولا تضر معهما قلة ، ولا تنفع مع الجور والكسل والفشل والاختلاف والعجب كثرة ، أيها الناس ما فعلت من شىء فافعلوا مثله ، إن حملت فاحملوا ، وإن وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد فى القتال . ألا وإنى عامد إلى طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتى أخالطه وأقتل دونه ، فإن قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وتولوا الدبر لعدوكم فتبددوا بين قتيل وأسير ، وإياكم إياكم أن ترضوا بالدنية ، ولا تعطوا بأيديكم ، وارغبوا فيما عجل لكم من =

المعروف الآن باسمه ؛ و بعد أن حصنه واتخذ منه قاعدة لحركاته العسكرية غشى ولاية الجيكراس[١] (الجزيرة) التى كان يحكمها تدمير أحد عمال (روذريق)، فتقابل الجيشان ودارت بينهما معركة هائلة أسفرت عن انهزام القوط، الذين كانوا قد حاولوا صد العرب عن التقدم ، وعندئذ شرع « طارق » فى زحفه المشهور على طليطلة فى إثنى عشر ألفا . و بينما كان روذريق مشغولا فى إخماد الثورة التى اشتعل أوارها فى المناطقات الشمالية بلغه خبر نزول المسلمين فى بلاده فقفل راجعا إلى العاصمة ، وأوعز إلى الرؤساء الإقطاعيين أن يلتحقوا به مع جنوده فى قرطبة . وكان الجيش الملكى نفسه كبير العدد ، فلما جاءت إليه الأمداد بلغ فى جملته زهاء مائة ألف ، ولهذا كان جيشا العرب والقوط غير متكافئين عند ما تلاقيا على ضفاف نهر كوادليت فى شمالى سيدونيا[٢] . ومع أن أولاد وتيزا الذين كانوا يسخطون على روذريق انسحبوا من الميدان بعد المعركة الأولى ، فقد ظلت تحت قيادة الملك قوة هائلة مجهزة بأحسن الأجهزة ، وأخذت تقاوم العرب وتصد هجومهم حينا من الزمن . غير أن « طارق بن زياد » حمل عليهم بنفسه حملة صادقة فهزمهم شر هزيمة وشتت شملهم وأغرق ملكهم فى مياه نهر الكوادليت فأحدث هذا النصر[٣] المبين تأثيرا عظيما على الأعداء ، وأضعف قوتهم المعنوية

موقعة سيدونيا

هزيمة القوطيين

= من الكرامة والراحة من المهنة والذلة ، وما قد أحل لكم من ثواب الشهادة ، فإنكم إن تفعلوا والله معكم ومعيذكم تبوءون بالخسران المبين وسوء الحديث غداً بين من عرفكم من المسلمين . وها أنا ذا حامل حتى أغشاه فاحملوا بحملتى » . (المعرب)

(١) أخذ هذا الاسم عن العربية من كلمة « الجزيرة » .

(٢) يقول المقرى : « إن الجميع يتفق على أن المعركة وقعت على شاطئ نهر « وادى لكة » فى منطقة « شيدونيا » . بينما يقول دوزى : « إن المعركة وقعت على شاطئ وادى بقة ، وهو نهر صغير يسمى بنهر « سالادو » يصب فى البحر » ويقول أيضا : « إن تلك المعركة وقعت فى ١٩ تموز سنة ٧١١ م . » .

(٣) لا يمكن أن يقلل انسحاب أولاد وتيزا من شأن هذا النصر المبين ، إذ أن قائد جيش المسلمين على رأس ١٢٠٠٠ لقى جيشا منظما يبلغ عدده خمسة أضعاف عدد جيشه ، فهزمه شر هزيمة .

كما أدخل اليأس إلى قلوبهم ، فخشوا مقابلته مرة أخرى . وصالحته مدينتا « شدونة » و « قرمونة » ، وأظهرت مدينة استجة التى لجأت إليها فلول جيش روذريق بعض المقاومة ، ولكنها صالحته أخيرا بعد أن نالت منه بعض الشروط المرضية .

وبعد أن قسم طارق جيشه الصغير إلى أربع فرق سير الفرقة الأولى إلى ٧٠٥–٧١٥ م
قرطبة ، والأخرى إلى مالقة ، والثالثة إلى غرناطة والبيرة ؛ وسار هو بنفسه على رأس القوة الرئيسية نحو طليطلة عاصمة القوط ؛ فأسلمت مالقة وغرناطة وقرطبة الواحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر ، ودانت له الجيكراس « الجزيرة » التى كانت خاضعة لسلطان تدمير ، وعندئذ هال القوط سرعة حركة طارق وشدة حملاته . ويقول أحد المؤرخين : « إن الله كان يملأ قلوب الكفار فرقاً ورعباً » . وكان الأشراف إما يعرضون طاعتهم على الفاتحين أو يهيمون على وجوههم من بلد إلى آخر ؛ ونزح كبار الاكليروس إلى روما . أما عامة الشعب واليهود والأقنان البائسون فقد رحبوا بدخول المسلمين وعدّوهم مخلصيهم من نير العسف والجور . ولما وجد طارق أن الأسبان قد هجروا طليطلة عاصمة بلادهم خلف فيها « أوباس » شقيق الملكة (غيطشه) فى فرقة من المسلمين واليهود ، وسار بمن معه حتى انتهى إلى أستوركاوا . وعندما انتهت أخبار هذا النصر المبين إلى مسامع أمير أفريقيا « موسى بن نصير » حسد قائده هذا الفخر وسارع إلى
أسبانيا فى ١٨٠٠٠ ليكمل الفتح الذى بدأ به قائده المشهور . وكان فى جيشه حزيران ٧١٢ م
عدد كبير من سادات اليمن وأحفاد الصحابة الأولين ، فسار بهم شرقا حتى غشى سافيلا وماردة وفتحهما عنوةً فلحق به فى « طليطلة » قائده المشهور « طارق بن زياد » . ولما التقى هذان القائدان[١] بعد هذا الغياب الطويل تنازعا فى أمور

(١) استقبله طارق فأنبه وبالغ فى إهانته . ويقول جيبون فى تاريخه «انحطاط وسقوط الدولة الرومانية» ما يلى : — « ولكن بلغ من دقة النظام ونقاء الحماسة وذكاء الحمية فى صدور الإسلام أن تجاوز طارق عن ذلك الخزى » . (المعرب)

obeikandi.com

لم تكن لتليق بمقامهما ، وإن كانت غير بعيدة عن روح العصر ؛ ولكنهما لم لم يلبثا أن اصطلحا ووحّدا قوتيهما ثم زحفا على أراغون فأسلمت لهما سرقسطة وتراغونة و برشلونة وغيرها من المدن المهمة الشمالية . وفى أقل من سنتين غدت بلاد الأندلس حتى حدود جبال البرنيه خاضعة لسلطان العرب الذين احتلوا بعد سنوات قليلة بلاد البرتغال واعتبروها ولاية منفصلة وأطلقوا عليها اسم « الغرب »(١) ولكن المسيحيين الأسبان فى جبال الأوستر ياس استمروا يقاومون العرب ، ويمتنعون فى حصونهم .

فتوحات موسى ابن نصير

عهد موسى بن نصير إلى قائده طارق مهمة إخضاع بقية المدن فى « جليقية » وسار هو إلى فرنسا حيث استولى بسهولة على القسم التابع لحكومة القوط من بلاد « لانكودوك » . وما أن صعد القائد العظيم على جبال البرنيه حتى عقد النية على احتلال أوربا برمتها . ولو سمح له وقتئذ بتحقيق فكرته لنجح على الأرجح فى تدويخ أوربا والاستيلاء عليها ، إذ أصبحت تحت قدميه ، ولم تكن ثمة رابطة بين الأمم التى كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة ، كما أنه لم يكن قد وجد بعد ذلك البطل الذى يستطيع توحيد الأقطار المسيحية ، ويقف بها سداً حائلا أمام تقدم العرب ؛ غير أن سياسة الحذر والتردد التى اتبعها بلاط الخلافة فى دمشق أضاعت تلك الفرصة الثمينة ؛ وظلت أوربا تتخبط فى دياجير الجهل والظلمات طوال الثمانية قرون التى أعقبت ذلك العهد . فبينما كان « موسى بن نصير » على وشك التوغل فى فرنسا يأمل عبورها إلى إيطاليا ، جاءته أوامر « الوليد » ، فأوقف زحفه وقفل راجعا إلى الأندلس التى كان قد حصر اهتمامه فى إخضاع بقية حصونها الجبلية حيث امتنع بعض المسيحيين وشيدوا معاقلهم المنيعة .

سار القائد العربى حتى انتهى إلى جليقية ، و بعد قتال شديد استولى على

(١) لا تزال ولاية فى البرتغال الحديثة تسمى باسم الكارف .

قلاعها ، وأزاح العدو إلى جبال أوسترياس ؛ ولما استقر فى لوكو أخذ يدير حركات الجيش فى مطاردة الأعداء . و بفضل همة ذلك القائد الكبير طفقت العصابات تسلم الواحدة عقب الأخرى ما عدا « بيلايو » وقليل من أنصاره ، وكان قد أوشك هذا أيضاً أن يعرض طاعته ، ويتم بذلك احتلال البلاد كافة ، لولا أن وصل فى اللحظة الأخيرة رسول من الخليفة يأمر الفاتحين المظيمين « موسى » و « طارق » بالإسراع إلى الشام .

استدعاء موسى ابن نصير وطارق ابن زياد

ومهما تكن الأسباب الباعثة على استدعاء هذين الفاتحين موسى وطارق ، فما لا شك فيه أن دعوتهما تعد كارثة على مستقبل الإسلام فى تلك الأنحاء ، إذ بعد أن غادر « موسى » بلاد الأندلس تنفس « بيلايو » الصعداء ، وشيد الحصون المنيعة فى الجبال ، وألف نواة العصابات التى انتصرت فيما بعد على الولايات الإسلامية الجنوبية . وما أن ارتحل هذان القائدان المشهوران حتى أخذ العرب يرمقون بعين الاحتقار وعدم الاكتراث تلك الفئة القليلة المعتصمة بالجبال التى أخذ يزداد عددها وتعظم شوكتها رويداً رويداً . ويقول المقرى فى تاريخه : « ليت المسلمين أطفأوا ذلك الشرر الذى استعر لهيبه فيما بعد ، والتهم الممالك الإسلامية فى تلك الأنحاء » . وقد رأى موسى قبل الرحيل أن يضمن استقامة الأمور ، فاستعمل على تلك الولاية ابنه « عبد العزيز » وجعل حاضرتها إشبيلية ، كما استعمل « عبد الله » ابنه الثانى على أفريقيا و « عبد الملك » أصغر أبنائه على المغرب الأقصى ، وعهد إلى « عبد الصالح » قيادة الأسطول وحاميات السواحل ، وبعد أن اتخذ كل هذه الترتيبات وضمن تنفيذها قفل راجعاً إلى الشام يحف به رهط من أصحابه .

نتائج فتح أسبانيا ٦٨ — ٩٦ هجرية

بدأ باستيلاء العرب على أسبانيا عهد جديد تمخضت فيه البلاد عن ثورة اجتماعية لا تضاهيها غير الثورة الفرنسية فى محاسنها دون مساوئها وشرورها ؛ ألغيت حقوق الطبقات الممتازة ومعظمهم من رجال الاكليروس والنبلاء ،

ورفعت الأعباء الثقيلة التى سحقت الصناعة وأرهقت الطبقة الوسطى ، واستبدلت الضرائب الطاحنة بضرائب عادلة تتناسب وطبقات الأهلين — وهى الجزية التى تفرض على الذميين ، والخراج الذى يؤخذ من الذميين والمسلمين معاً — وكانت الجزية فى حد ذاتها زهيدة ، إذ كانت تختلف باختلاف درجة الأشخاص الاجتماعية وحالتهم المالية ، علاوة على أنها كانت تستوفى سنويا فى اثنى عشر قسطاً[1] ؛ وكان يستثنى من دفعها الرهبان والنساء والأطفال بوجه عام ، والمقعدون والعمى والمرضى والأرقاء بوجه خاص ، أما الخراج فكان يراعى فى جمعه مقدار المحاصيل الزراعية ، ولهذا لم تعد ثمة ضريبة فادحة ينوء بحملها الزراعون ؛ كما نالت كثيراً من المدن الأسبانية فى غضون الفتح امتيازات سخية حافظ العرب على تنفيذها بأمانة وإخلاص .

ولو استثنينا أملاك النبلاء ورجال الإكليروس الذين فروا من البلاد أو التحقوا بالعصابات الغاليشية ، فإن الحكومة لم تصادر أملاكا أخرى ؛ هذا فضلا عن أنها كانت تعاقب بشدة كل جندى يثبت عليه أعمال العنف أو النهب مع أنها أعمال تقترن عادة بدخول الجيوش الفاتحة[2] . وقد نال اليهود المضطهَدون حرية إقامة الشعائر الدينية ، وتمتع المسيحيون فى كنف المسلمين بحرية الاعتقاد وأتيح لهم اتباع قوانينهم وتقاليدهم ، وعين لهم قضاة من أبناء طائفتهم للنظر فى أحوالهم الشخصية التى سن لنظامها قانون خاص ، وأصبح الجميع متساوين يتمتعون بالحرية التامة فى العبادة وإقام الصلاة ، وعين موظفون من المسيحيين لجمع الخراج من أبناء طائفتهم ، وغدت أبواب الوظائف على اختلافها مفتوحة على مصراعيها أمام المسلمين واليهود والمسيحيين على حد سواء . ولعل كثيراً من

(١) وهى تتراوح بين ١٢ إلى ٤٨ درهما ويساوى الدرهم فرنكا واحداً .

(٢) للقارئ أن يراجع أخبار الحوادث التى اقترنت بدخول الجيش الألمانى المنظم الأراضى الفرنسية سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ أو فى الحرب العامة سنة ١٩١٤ لكى يفهم تماما ويلات الحروب الطاحنة .

الدول العصرية تحسن صنعاً لو اقتبست من المسلمين أساليب الإدارة فى أسبانيا . بيد أن أظهر نتائج الفتح ، هو تحسين حالة الطبقات المستعبدة ، التى كانت إلى ما قبل ذلك الحين تعامل معاملة السائمة ، فتبوءوا الآن فى حكم المسلمين المراكز الجديرة بهم ، أما العبيد والأقنان الذين كانوا يزاولون الفلاحة فى المزارع التى غدت ملكا للمسلمين ، فقد وهبوا حريتهم وأصبحوا مزارعين أحراراً ، يستأجرون الأرض من أصحابها ويعتنون بها اعتناء المالك لملكه ، وأصبحت الأرض أرضهم ، فلا يطالبون إلا بدفع حصة من المحصولات الزراعية لأصحابها المسلمين ؛ وتحسنت أيضاً حالة الفئة التى ظلت تشتغل مع أسيادها المسيحيين ؛ وذلك أن أى تظلم من سوء معاملة أسيادهم المسيحيين أو مجرد اعتناقهم الدين الإسلامى ، كان يؤدى حتما إلى إخراجهم من ربقة العبودية بمقتضى القانون الجديد ، فتهافت الأقنان على اعتناق الدين الإسلامى ليفوزوا بحريتهم ويتمتعوا بنعم الحياة التى حرمت عليهم فى أيام الحكم السابق ؛ كما اعتنق الأشراف والنبلاء الديانة الإسلامية ، وسواء أكان الباعث على اعتناق الإسلام هو الإيمان الصحيح أم الرغبة فى اقتناص المنافع الشخصية ، فقد أخلصوا على كل حال لدينهم الجديد كل الإخلاص ، واعتنقوه بحرارة كما سيظهر فيما بعد . ولقد فضل المسيحيون حكم العرب — المنطوى على السخاء والكرم — على استبداد القوطيين وجور الفرنج ، وعادوا زرافات ووحدانا إلى المدن والقرى التى كانوا قد هجروها من قبل . وحتى رجال الكهنوت لم يتبرموا من الحكم الجديد ، أو على الأقل ظاهروه فى إبان الفتح كما يقول « دوزى » . ويقول كاتب مشهور آخر من كتاب الأسبان : « نظم العرب مملكة قرطبة تنظيما جعلها أعجوبة الزمان فى العصور الوسطى ، وحاملة مشعل العرفان والمدنية ، فأضاءت بنورها كافة أنحاء العالم الغربى ، الذى كان آنئذ يتخبط فى دياجير الجهل والمنازعات » . ويقول أيضاً فى موضع آخر من كتابه : « يجب ألا يظن أن العرب كأقوام

البربر الذين سبقوهم الى الأندلس ، عملوا فيها معاول التخريب والتدمير ، بل على العكس لم تتمتع الأندلس بحكم عادل مثل ما تمتعت به على أيدى هؤلاء العرب الفاتحين ؛ وإن المرء ليحار فى معرفة كيف نبغ هؤلاء العرب فى الإدارة مع أنهم نزحوا رأساً من صحاريهم ، كما أن انتصاراتهم السريعة فى الحروب لم تفسح لهم مجالا كافياً لدرس فن إدارة الأمم والشعوب » .

تقسيم الإدارة

قسم العرب أسبانيا إداريا إلى أربع مقاطعات كبيرة وعينوا لكل مقاطعة حاكما يتصل رأساً بأمير الأندلس ، وكانت تتألف أولاها من أندلوسيا — الأراضى الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط ونهر الوادى الكبير — والبقعة الممتدة من هذا النهر إلى وادى يانا ، ومدنها : قرطبة ، وأشبيلية ، ومالقة ، وجيان .

وتشتمل المقاطعات الثانية على أواسط أسبانيا ، يحدها البحر الأبيض المتوسط من الشرق وحدود لوزيتانا (البرتغال الحالية) من الغرب ، ونهر دورو من الشمال ، وأشهر مدنها : طليطلة ، وقونقا ، وسيقوبيا ، ووادى الحجارة ، وبلنسية ، ودانية ، وتوطاجنة ، ومرسية ، ولارقة .

وثالثتهما تشتمل على جليقية ، ولوزوتانيـة (البرتغال الحالية) وأهم مدنها مريدا ، وباجة ، ولشبونة ، واستورقة ، وسمورة ، وشلمنقة ، الخ .

ورابعتها تمتد من شاطئ الدورو إلى جبال البرنيه على ضفتى نهر الأيبرو ؛ وأشهر مدنها : سرقسطة ، وطرطوشة ، وتراغونة ، وبرشلونة ، وتطيلة ، وولاد وليد ، الخ .

ولما امتدت الفتوحات فيما بعد أنشئت مقاطعة خامسة فيما وراء البرنيه مؤلفة من لاربونة ، وينم ، وقرقشونة ، وبزيبة ، وآدج ، وماحيلون ، ولاديف .

وكان العرب يؤثرون السكنى فى هذه المدائن ، حيث تجمعوا فرقاً على نمط الأحياء العربية ، وهذا التكتل وإن ساعدهم نوعاً ما على صد هجمات المسيحيين ، إلا أنه أدى إلى إنماء روح المنازعات وإثارة الأحقاد القبلية .

وفيما يلى جدول يبين توزيع القبائل والشعوب المختلفة التى نزلت فى أنحاء تلك البلاد :

قرطبة	قبائل دمشق
أشبيلية ونيبلة	قبائل حمص
جيان	قبائل قنسرين
شدونة والجزيرة	قبائل فلسطين
رية ومالقة	قبائل الأردن
شريش	قبائل الفرس
طليطلة	قبائل اليمن
غرناطة	قبائل العراق
ماردة ولشبونة . الخ	قبائل مصر

واستوطن المدن الداخلية عشرة آلاف من نبلاء الحجاز . وأنشأ عبد العزيز الذى استخلفه أبوه موسى قبل سفره إلى الشام ديواناً لتطبيق القوانين وأحكام الشرع حسب حاجات البلاد ، والعمل على مزج الشعبين الفاتحين وأصحاب البلاد الأصليين . وقد استطاع عبد العزيز بكياسته وتساهله أن يوفق بين جميع الطبقات ؛ وكان من سياسته تشجيع التزاوج بين هذين الشعبين ، شأنه فى ذلك شأن ملوك المغول الأوائل الذين احتلوا الهند ؛ وقد تزوج هو نفسه بأرملة رودريك المسماة ايكولونا ، والتى يلقبها العرب « بأم عاصم » كيما يكون قدوة لشعبه فى تحقيق هذه الغاية .

تحسين شؤون أسبانيا

توافد المهاجرون فى الأصل من ممالك زراعية بطبيعتها كمصر وسوريا وإيران ، وكانوا كاليهود الذين كانوا يتبعونهم أينما رحلوا موهو بين بغريزة التجارة ؛ وكانت تعاليم النبى (ص) تحفزهم على أن يعملوا لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً ، ولهذا أقبلوا على موطنهم الجديد بنشاط وهمة لا مثيل لها ، وشمروا عن ساعد الجد فى ترقية البلاد وتحسينها بعد أن بقيت مشلولة طوال عهد الحكومة المسيحية . فأدخلوا عدة أعمال زراعية وأخصبوا الأرض القاحلة وعمروا المدن المهجورة وزينوها بالتماثيل الجميلة ، وربطوا بينها برباط التجارة والصناعة ، ومنحوا أهلها حق التصرف بالأرض ، وهو حق لم يتمتعوا به من قبل فى عهد القوطيين ، وحرروا الأقنان من ربقة العبودية التى كانت مسلطة على رؤوسهم تسلط السيوف المسلولة على الرقاب ، فأصبحت أسبانيا بهذا الفضل العميم أكثر الممالك الأوربية رغداً . وعلى الجملة فإن العرب خلقوا منها جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الأنهار ؛ وأسسوا فيها إدارة تعد بحق أنموذجا للإدارات ؛ وشجعوا الفنون والعلوم ؛ ولكنهم برغم كل ذلك عجزوا حتى فى تلك البلاد النائية عن كبح خصوماتهم القبلية القديمة التى يشتعل أوارها فى الصحراء . ومع أن الحظ وهبهم سانحة لتأسيس إمبراطورية فسيحة الأرجاء ، إلا أنهم أضاعوها لما كان يعوزهم من الوحدة والتآلف . وقد ازداد النزاع فى أسبانيا واشتدت الخصومات بسبب عاملين جديدين أعانا على الفت فى ساعدهم فى تلك البلاد وهما :

(١) البربر — وكانوا يبغضون الضباط العرب بغضاً شديداً ، ويثورون عليهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ؛ ولا يخفى أن قمع حركاتهم كانت تؤدى دائماً إلى إضرام نار العداء العنصرى .

(٢) المسلمون الأسبانيون — وكان هؤلاء من جهتهم يمقتون العرب والبربر على حد سواء ، يكرهون العرب لكبريائهم وترفعهم ، ويمقتون البربر لوحشيتهم وبربريتهم . ومع أن التعاليم الإسلامية الديمقراطية تمحو المفاضلة بين الأجناس

والألوان ، إلا أن العرب فى تلك البلاد البعيـدة التى احتلوها بحد السيف لم يقووا على التغلب على الاعتزاز بعنصريتهم ، ذلك الاعتزاز الذى يعد بالضرورة صفة من صفاتهم الممتازة ، فهم كالأنجلوسكسونيين يعدون أنفسهم أنبل خلق الله . وتعيد العلاقة بين العرب والمولدين (أهالى البلد) إلى أذهاننا فى صورة مصغرة ذكرى العداء العنصرى القديم بين النمساويين والإيطاليين فى ولاية لومباردى ، أو العداوة التى لا تزال تستعر بين الكلتيين والسكسونيين فى ايرلنده الحرة . كان المولدون فى أسبانيا كالإيرلنديين فى الوقت الحاضر يصرون على أن يمنحوا الحكم الذاتى ، وعلى أن يحكمهم أفراد من بنى جنسهم . وكان معظم الثورات التى يقوم بها المولدون ضد العرب يضرم نارها الفقهاء ، ذلك أن الأسبان اعتنقوا الإسلام بنفس الحماس المفرط الذى اعتنقوا به الديانة المسيحية من قبل ؛ فكانوا بتحريض الفقهاء يثورون على العرب للذود — فى زعمهم — عن الإسلام ، كلما شعروا تساهلا من العرب فى معاملة الذميين أو تفسير نصوص الدين ، فأضعفت هذه الضغائن والاختلافات الإمبراطورية ، وأدت كما تكهن ابن خلدون إلى فقدان القسم الشمالى حتى برشلونة قبل أن تنقضى ٨٠ سنة على احتلالها .

والآن يجب أن نحول أبصارنا نحو الشرق حيث نجد الوليد لم يمتد به العمر ليستقبل القائدين اللذين كان قد استقدمهما من ميـدان الظفر ؛ كما أنه حاول كأبيه بمساعدة الحجاج وقتيبة وكبار مضر أن يحصر ولاية العهد فى ابنه عبد العزيز ويعزل أخاه سليمان ، ولـكن المنية عاجلته قبـل تحقيق أمنيته ، فقبض بدير مران سنة ٧١٥ م ، وكانت ولايته تسع سنين وسبعة أشهر . ويعتبره المسعودى وابن الأثير حاكما عنيداً ظلوما غشوما ، بيد أنه حقيق بنا فى هذا الزمن البعيد ألا نذكر غير أفعال الرجل الحميدة ؛ وليس ثمة شك فى أنه كان أكثر رحمة من أبيه عبد الملك وجده مروان بن الحكم ، بل لعله كان أكثر رحمة أيضاً من كثير من خلفائه ؛ ويعتبره أهل الشام بطبيعة الحال أشهر الخلفاء وأبعدهم

أثراً ، إذ شيد الجامع الأموى بدمشق ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وأمر بتشييد وحفر الآبار فى أنحاء الإمبراطورية ، وفتح المدارس والمستشفيات ، وألغى الصدقات غير المنظمة ، وجعل للفقراء والشيوخ من العطايا ما يقوم بأودهم ، وشيد الملاجئ للعميان والمقعدين واليتامى والمجاذيب ، وكان يزور بنفسه الأسواق ، ويراقب ارتفاع الأثمان وهبوطها ، وكان أول خليفة أموى شجع الحرف والآداب والفنون .

وكان من معاصرى الوليد فى القسطنطينية جوستنيان الثانى ، الذى قتل سنة ٧١١ م وخلفه فيلبسيوس الذى سملت عيناه ، وعزل فى ٧١٣ م ، ثم ولى بعده أناستسيوس الثانى ، وقد قتله ثيودسيوس الثالث سنة ٧١٦ ميلادية .